مشكلة خلق القرآن
الواقعي والطبيبي والعقدي

دكتور عماد الدين محمد مصطفى رجب

تمهيد:

نشأة المسألة تطورها:

لم تظهر مسألة من مسائل علم الكلام، مما أثاره هذه المشكلة، حتى أن بعض الباحثين يرجع سبب تسمية علم الكلام إلى هذه المشكلة بذاتها.

ولقد أخذت هذه المشكلة اتجاهاً سياسياً، وأخيراً نظرياً، وتدخلت فيها الدولة، فأصبحت طرفاً من أطراف المشكلة، واستظهر شرار هذه المشكلة حتى طالت علماء المسلمين جميعاً.

وإذا ما ذهبنا نقصي البذور الأولى للمشكلة، وجدنا أنها تكمن في مواجهة المسلمين لأهل اللث الأخرى، وعلى وجه الخصوص، النصارى، القائلون بأن عيسى "كلمة الله".

وخير ما يصور هذه المواجهة ما أورده يسح الدمشقي في كتاب وضعه يدفع به ما جاء في الإسلام متعارضاً مع المسيحية حول شخص السيد المسيح: (إذا قال لك المسلم: ما تقول في المسيح؟ فقل له أنه كلمة الله، ثم ليس النصراني المسلم: نحن سمعنا السيد في القرآن؟ وليكتشف فلا يتكلم حتى يجيبه المسلم قائلاً: كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه، فإن أجاب بذلك فأصابه: هل كلمة الله وروحه مخلوقة أم غير مخلوقة؟ فإن قال مخلوقة فريد عليه بأن الله كان أذن، ولم

(٤٣-٤٣)
تكن له كامة وإلا روح، قالت ذلك نسيخام المسلم لأن يرى هذا الرأي، زنديق في نظر المسلمين (1).

وهلذا يصور النص خطورة المشكلة.

ولقد اضطاع المسلمون بهذه المشكلة في أول الأمر، كما كان شأنهم في باتي مسائل علم الكلام على مستوى فردي، يتحرج البعض من الخوض فيها، ويحاول البعض الآخر أن يتلاؤها.

ولقد كان من بين من تناولوا المشكلة، الجمود بن درهم أيام الدولة الأموية، حيث أظهر في عهد هشام بن عبد الملك مقتليه في خلق القرآن.

ولقد كانت الدولة الأموية تكره مثل هذا القول: لذلك تبض عليه الخليلة، وأرسله إلى خالد القسري، أمير العراق، وأمره بقتله فذبحه خالد في عيد الأضحى، وقال في خطبة للناس: «انصردوا وضحروا، يقبل الله منكم، فان أرد أن أضحى اليوم بالجمد، بن درهم فانه يترول: ما كلام الله مرسى، ولا اتخذ إبراهيم خليلا، تعالى الله عما يترول علوا كبيرا» (2).

لكن الأمر لم يدم على ذلك، فقد تغيرت الدولة، فكان العباسيون وظهر المعتزلة، أول مدرسة فكرية، منظرة ومنظمة لعلم الكلام، وتتسع نطاق المملكة الإسلامية، وتتلاقى الثقافات المختلفة في الساحة الإسلامية، فتلاقحت، وحمل المعتزلة لواء الدفاع عن المعتقد الإسلامية، وأخذت المشكلة شكلا محددا دقيقا.

والتحديد يعني عند المعتزلة التنزيه لذات الله - وهم قد تحرزوا

(1) علوم اليونان وسبيل انتقالها إلى العرب - أولى من 192.
(2) شرح العيون، ص 162، 163.
بالقول في الصفات مخافة الوقوع في التعبد والشرك، لذلك فنان مودتهم من مسألة خلق القرآن يبدو النتيجة فهم حينما قالوا بأن القرآن مطوق وحادث، أما قالوا ذلك لينفي تعدد القدماء وانفراد البارى.

جاء بعضا بالقدم وحده، فما هو تخرجهم للمسألة؟

قالت المتزيلة: إذا كان الله وصفاته وحيدة لا تتغير التغير، فمحال أن يكون القرآن كلام الله على معنى أنه صفة من صفاته، لأنه لو كان كذلك، لكانت معنيته وقيمة صفاته شيئاً واحداً، ونحن نرى أن في القرآن، أورا، ونبيا، وخبرا، واستعبرا، ووعدا، ووعيدا، فهذه حقائق مختلفة، وخصوصية المتانة، ومن المحال أن يكون الواحد يحتوي إلى خواص مختلفة، وهذه الخواص قد تتضاد، كاذب بين الأمر والنهى.

وإذا كان القرآن كلاماً أزلياً، هو صفة من صفات الله، ترتبت على ذلك، جملة استحالت.

أولها: أن الأمر لا قيمة له ما لم يُصِدَّف مأموراً، فلا يصح أن تصدر «أقموا الصلاة» إلا إذا كان هناك مأمورون بالصلاة، ولهم في الأمر من غير مأمور، بل الكلام كله من غير مكلم.

ثانيها: أن الخطاب مع موسى عليه السلام، غير الخطاب مع محمد عليه السلام، ومنتظما الكلامين مع الرسول مختارة، ويشتبه أن يكون معنى واحد، هو في نفسه كلام مع شخص على معان ومناهج، وكلام مع شخص آخر على معان ومناهج أخرى، ثم يكون الكلامان شيئًا واحداً معنى واحداً، هذا بالإضافة إلى أن الخبرين عن أحوال.

(2) انظر الإرشاد للجويني ص ٩٩
الأمتين مختلتين يخبر عنهما بخبر واحد ؟ والقصة التي جرت لديرسف وآخوته ، غير القصة التي جرت لأدم ونوح وإبراهيم ؟ وإذا اختلفت هذه الاختلافات ، استحال أن يكون الكلام صفة الله ، وهو الواحد في ذاته وصفاته الذي لا يختلف ، ولا يطرأ عليه اختلاف .

ثالثها : أن المسلمين أجمعوا قبل ظهور هذا الخلاف على أن القرآن الكريم كلام الله ، اتفقوا على أنه سور وآيات وحروف منتظمة وكلمات مجموعه ، وهي مقروءة وسمعة ، لها مفتتح ومختتم ، وهو معجزة رسول الله ، وأجمعوا الأمة على أنه بين أيدينا نترؤه بالسنتنا ونحن بآيدينا ، نبدره بعيننا ، ونسمعه بأذاننا ، ومحاولة أن يكون هذا كله وصفًا لصفة الله ، فالكلام الأولي الذي هو صفة الله لا يوصف بمثل هذه الصفات .

تلك هي أدلةهم العقلية .
فماذا عن أدلةهم النقلية ؟

يقول المعتزلة :

١ - أن الله تعالى يقول :
"واذ قال ربك للملاككة (٤) » (واذ) ظرف زمان ماض، فيكون قوله الواقع في هذا الظرف مختصا بزمان معين ، والمختص بزمان .

٢ - يقول الله :
"كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت« (٥) . وهذا دليل على أن القرآن مركب من الآيات التي هي أجزاء متعاقبة فيكون حادثًا .

(٤) البقرة آية ٣٠
(٥) سود آية ١
3- يقول تعالى:
«حتى يسمع كلام الله» (6) والمسموع حادث، لأنه لا يكون
الآ حرفًا وصوتًا.

4- أنه تعالى عبر عن القرآن بقوله:
«انا أنزلناه» (7) ولا شك أنه لا أنزل في الأزل.

5- ان القرآن نص على نسخ بعض الآيات بقوله:
«ما ننسخ من آية أو نسها، نأت به وخير منها أو مثلها» (8).

ولا يمكن تصور النسخ الآ، في الحادث، لأن القديم ليس عرضا لذلك.

تفسير الزمخشري:

وقالوا إذا استحال أن يكون القرآن وكل الكتب المنزلة قديمة.
ووجب أن نقول أنها مخلوقة الله. فكلام الله تعالى عبارة عن أصوات
ورحوف يختمها الله في غبره، ففصل إلى النبي عن طريق ملك ونحوه كما
قال تعالى: «وَکَانَ لِبَشْرٍ أَن يَكُلِّمُهُ اللَّهُ الَّذِي أَوْحَىْ إِلَيْهِ وَأَنْ يَرْسَلَ رَسُولًا فِي حَيَاةِ مَا بَآَهُ» (9).

فهذه ثلاث طرق في الكلام: الوحي والقذف في القلب، وأن
يسمعه كلامه الذي يخلقه في بعض الإجرام من غير أن يبصي السماع
من يكلمه كما كلم موسى، والملائكة، وأن يرسل الأنبياء والرسول
يكلمن أمة من الله (10).

(1) التوبة آية 6
(2) يوسف آية 3
(3) البقرة آية 106
(4) الشورى آية 51
(5) تفسير الكشاف انظر المقدمة

لمنى
وقال المعتزلة كذلك، إن القرآن نوع من الكلام الذي يخلقه
الله، وإنما سمي كلام الله لأنه خلق الله من غير واسطة، وهذا هو
الفرق بينه وبين كلامنا. فكلامنا وألفاظنا تتسبب إلينا، أما القرآن
فخلق الله مباشرة، والحروف التي نكتبها في المصحف أو ننطق بها
من صنعنا، وإنما وجب لها التعليم، لأنها دالة على المخلوق لله.

واذن فمعنى كون الله متكلما أنه خلق الكلام وفاعله، فأن الكلام
ليست شيئا أكثر من أن يفعل المتكلم فعلا يدل به المخاطب على العلم
الذي في نفسه، فلهذا هذامعنى متكلما، أي فاعل ما يدل به المخاطب
على ما يريد، والفعل والجمل مخاوق.

ويشير الزمخشري - وهو من مشايخ المعتزلة - إلى كل هذه
الأدلة في خطبة تفسيره (الكشف)، فيقول: "الحمد لله الذي أنزل
القرآن كلاما مؤلفا نظما ونزله بحسب المصطلح منجما، وجعله
بالتحميم مفتوحا، وبالاستعذار محتطا، وأوحاه على تسمي مشابها
ومحكما، وفصله سورة، وسوره آيات، وميز بينهن بحروف وأغيات
وما هي الآيات مبتدة ومبتعد، وسمت منشأ ومختصر، فسبحان
من استحث بالإرشادة والقدم، ورسم كل شيء سواء بالحدث عن العلم
أناشده كتابا سطحا تبانيه، قاطعا برهانه، وحيا ناطقا ببيئات وحجج
قرآنا عربية غير ذي عوج.

وإذا كان هذا هو موقف المعتزلة من مسألة خلق القرآن، فماذا
كان رأي المعارضين؟

لقد ناهض المعتزلة في هذه المسألة فريقان:

الفريق الأول:

يسامحون السلف، ويرون أن الله وصف نفسه بصفات من قدرة
وإرادته وعلم الكلام وسمع وبصر، ووصف نفسه أنه على العرش.
وقال ´ليس كمثله شيء´(11) ﻭاذا وجّب الإيمان بها كما جاءت 
ولا نتعرض لتأويلها وشرحها، فنجري ظواهر النصوص على مواردها 
وبكتف عن تأويلها نفوذ معنويها إلى الله ﺟ ﻣ ﺟ ﻣ ﺟ ﻣ ﺟ ﻣ ﺟ ﻣ ﺟ ﻣ ﺟ ﻣ ﺟ ﻣ 
وقالوا أن أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام، درجوا على 
ترك التعرض لمعانيها، ودرك ما فيها وهم صفوه الإسلام، ومستقلون 
بآباء الشريعة، حيث كانوا لا يألون وجه أفي ضبط قواعد الله 
والاتواصل بحفظها، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها، وأذ أنصر م 
عصرهم وعصر المتتابعين على الأخبار عن التأويل، كان ذلك هو 
الوجه المتبع، فحق على ذي الدين أن يعتقد تنزه البراء عن صفات 
المحدثين ولا يخوض في تأويل المشكلات، ويكيل مغناها إلى الله ﺟ ﻣ ﺟ ﻣ ﺟ ﻣ ﺟ ﻣ ﺟ ﻣ ﺟ ﻣ ﺟ ﻣ ﺟ ﻣ ﺟ ﻣ 
فببجى آية الاستواء والجزء وقوله ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ 
وَيِبْقُ يَّنِهِ رَبِّكَ ﴿۱۳﴾، وقوله ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ ﻓ 
وَلَا ( لَمْ ) أَلْنَذِّكَ بِذِكرِهِ (۱۵) ﻣ 
والسلف ينكرن الجدل والراء في الدين، والخصوصة والنظرة 
فيما يتناطر فيه أهل الجدل ويتنازعون من دينهم، ويسلمون للروايات 
الصحيحة، وما جاءت به الآثار التي جاءت بها الثلاثة، عدل عن عدل 
حتى ينتهي ذلك إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لا يقولون ( كيف ﺟ ﻣ ﺟ ﻣ ﺟ ﻣ ﺟ ﻣ ﺟ ﻣ ﺟ ﻣ ﺟ ﻣ ﺟ ﻣ ﺟ ﻣ ﺟ ﻣ ﺟ ﻣ ﺟ ﻣ ﺟ ﻣ ﺟ ﻣ 
ولا ( لَمْ ) أَلْنَذِّكَ بِذِكرِهِ (۱۵) ﻣ 
(11) سورة الشورى آية 11 
(12) سورة ص آية 75 
(13) سورة الرحمن آية 47 
(14) سورة القصر آية 14 
(15) انظر أبو العالى الجولاني في الأرشاد ص 99 وما بعدما 
(16) مقالات الإسلامين - الأشعيري ج1 ص 347
وقد قالوا: نؤمن بما جاء، كما جاء، ولا نتكلم فيما لم يجيء.
وإذا عجزنا في أسلفنا عن (ما) دائمًا وعن (كيف) كثيرًا، فكيف نستطيع أن نجيب عن (ما) و (كيف) في ذات الله وصفاته؟ وإذا كان ذلك كذلك، فلنؤمن بما جاء، وإنفق عندما جاء، ولا نبحث فيما إذا كانت صفاته أعين ذاته ولا غير ذاته، ولا كيف يتصل علم الله القديم بالمعلومات الحديثة، ولا نحو ذلك، فإنها فوق عقولنا، وإذا ذاك تكون مجالاً للزلزال.

من هذا الالتزام نرى أن جوهر الخلاف بين السلف وبين المتزيلة هو سلطة العقل ومداها وحدودها.

1 – فقد رأى المتزيلة أن العقل البشري قد منح من السلطة والسعة ما يمكنه من إقامة البرهان حتى ما يتعلق بالله، فلا حذور للعقل الإبراهيمي، ولا زلل ولا خطاً حتى صرح البرهان. ولهذا استعملوا البرهانين في أدق الأمور وأصعبها وأعقدها، ففي استطاعة العقل الوصول إلى الحق فيها.

هكذا كانت نزعة المتزيلة متجلية في كل أبحاثهم، يشيرون وراء البرهان إلى نهايته، ويثيرون أصعب المشاكل وعقدها، ويتحيزون لحلها، فهذا تم لهم حلها أو اعتقدها بحلها، تأولوا آيات القرآن على مقتضاتها.

2 – وعلى العكس منهم، كان السلف، الذين رأوا أن العقل أضعف من ذلك، وأن استطاعته محدودة بادراك ما يتعلق بشأنه هو أو أقل من ذلك، وأنه منح القدرة على أن يدرك البرهان على وجود الله والبرهان العام، وثوبة محمد خاصة، ولم يمنح القدرة على كله اقل.
يصفاته. لذا يجب أن نؤمن بما جاء به النبي ﷺ، ولنقول، عند ما قالوه.

دون إثارة لما شكل لم يأت بها النبي ﷺ، ويجيب أن نستدرك على
من يثرونها، فإننا لم نذهب في شيء، ففي بيان خطتهم ومن ساد طريقهم.

وHEN آثار المعنونة القول بخلق القرآن قالواهم «القرآن كلام
الله لا نقول مخلوق ولا غير مخلوق»، فتأثر هذه المسألة بدعة لم يقلها
النبي عليه الصلاة والسلام ولا صحبته، فلا نتابعهم في السير فيها،
ولا نتابعهم في الجدال والخصومة وننفق عند قولنا: القرآن كلام الله،
و هذا نطق ما قال الله في قرآنه الكريم.

الفريق الثاني:

وتمة فريق آخر، من بعض المحدثين، ينعى أن القرآن بدروقه
أصواته، قديم، وبالغوا فيه حتى قال بعضهم جهلا: الجلد وغلاف
قديم، فضلاً عن الصحف(17)، كما قالوا: «قد تقرر الاتفاق على
أن ما بين الدفترين كلام الله وأن ما نقروه ونسمعه ونكتب كلام الله
فوجب أن تكون الكلمات والحرف هو بعينها كلام الله
ولما تقرر الاتفاق على أن كلام الله غير مخالق، فيجب أن تكون الكلمات
أزلي في غير مخلوقة»(18).

ومثل هذا القول ظاهر البطلان، صادق عن عقل ضيق ونظر
سقيم.

هذا الفريقان اللذان ناهضا المتحدة في قولهم بخلق القرآن.
وقد ظل النزاع محصوراً في هذه الدائرة أيام محنة القول بخلق القرآن.

(17) المواقف 3/ 76
(18) نهاية الأقدم ص 312
يتحول هذا الكلام النفسي إلى كلام لنظري، لا يتحول، وهذا هو ما يسمى بالنحو. وهو الذي يقول فيه الله تعالى: «فأشارها يوسف في نفسه، ولم يبيدها لهم» (19) ووقت الحديث عن أم سلمة أنها سمعت رسول الله وقد سأله رجل، فقال: «أني لأحدث نفسى بالشيء، ولو تكلمت به لأنني أجري. قال النبي صلى الله عليه وسلم، لا يلقى ذلك الكلام إلا دعمن».

ومن أدرك هذه المعاني فقد جدد الضرورة، وباهت العقل وأنكر البديهيات. ومن العجب أن الإنسان قد يجوز أن يخاف ذهنه عن كل منعني، ولكنه لا يخاف أيضا من حديث النفس حتى في النوم فانه في الحقيقة يرى في منامه أشياء وتحدث نفسه بها، وربما يطاعه لسانه وهو نائم فيتكلم متابعة لنفسه (20).

والمعزلة قالت: «نحن لا نتكرر الخواطر التي تطرأ على نفس الإنسان وبما نسرحيها أحاديث النفس، إلا أنها في الحقيقة تتغير للعبارات التي ينطق بها الإنسان، فمن لا يعرف كلمة باللغة، لا يخطر بالله كلام العرب ومن لا يعرف الفارسية لا يخطر بالله كلام الفرس، ومن عرف اللسانين تارة تتحدث نفسه بلسان العرب، وتأرية بلسان الفرس.

فعلم على الحقيقة أن أحاديث النفس تابعة للعبارات اللغوية. فالكلام في الحقيقة هو الحروف التي يعبر عنها اللسان، ومن قادر عليها فهو المتكلم، ومن لا يقدر عليها فهو الإبكم، فليس الكلام حقية عقلية كسائر المعاني، بل هو عبارة وألفاظ، ونحوها يختلف بال▌واضحة».

(19) سورة يوسف آية 77
(20) نقل عن ضاحي الإسلام ص 41
والاصطلاح والتشابه هو حتى لو تراضاً قوم على نقرات وأشرات.
ورموز يحصل التفاهم بها، كما يحصل التفاهم بالعبارات.
فما يسميه الناس كلام النفس، ليس الا معلومات وأدراك.
أدركها الإنسان وزورها في نفسه بعبارات ولفظ، وليس هناك
شيء وراء ذلك.
ويشبه هذا تماماً ما يثيره علماء النفس والمنطق حتى الآن من
البحث فيما إذا كان الادراك يمكن أن يقوم بنفسه من غير لفظ أو لا.
وإذا كان فلأي أى حد يكون ذلك، ولم يفهم في ذلك مذهبان: فمن قائل
أن من الممكن التفكير بدون الاستعانة باللغة ومن قائل أن ذلك غير
ممكن، وان التفكير من غير لفظ ضرب من الوهم الكاذب.
ويقول: "ماكس مولر": "أن الفكر واللغة شيء واحد" وشبه
ذلك بالنقد، فقال: ليس ما يسميه الفكر الا وجها من وجهي النقد.
والوجه الآخر هو الصوت المسموع، والنقد شيء واحد لا يقسم،
فليس ثم الفكر وصوت ولكن كلمات".
ولقد آثار الأشاعرة والمعترضة هذا الكلام ليتابوه على كلام
الله، فلما أنكر المعلم كلام النفس قالوا: ليس كلام الله ما نقرؤه
وسمعه من القرآن والكتب الدينية، وهي مخلوقة وكاشك، ولا شيء.
وباء الأشاعرة: أن الله ذات الله القادرة على خلق الكلام، الربيدة للخلق.
وقال الأشاعرة: أن الله كلاماً نفسياً غير القدرة والإرادة والعلم.
وهو قديم، لا يتغير، والتفسرين مشهور لهذه الصفة وأثر من آثارها.
وهو محسوس.

(31) نهاية الإقدام ص 320 وما بعدها.
ويعصور صاحب المواقف هذا معبّرا عن رأى الأشعرية، بعد كلمته طهويل قائلاً:

«أذا عرفت هذا، فأعلم أن ما يقوله المتزلج في كلام الله تعالى وهو خلق الأصوات والحرف الدالة على المعاني المقصودة، وكونه حادثة قائمة بغير ذاته تمامًا، نحن نقول به، ولا نزاع بيننا فيه وما نقوله نحن كلام النفس المغير لسائر الصفات، فهم يذكرون ثبته، ولو سلموا لم ينفعوا قدمه، فصار كل النزاع نفى النفس أو أثبائه» (22).

ومن العجيب أن يشتد الخلاف بين الناس في مثل هذا الأمر حتى أدى بهم إلى الاحتكام إلى السيف.

ومن الواجب التنبه إلى أن تحديد وجه الخلاف وحصر نقطة النزاع لم يكن واضحًا في عقول أكثر الناس إذ ذلك، بل كانت هناك معان غامضة زاد غموضها هياج الناس وتبيل أفكارهم واستعمال الشدة في السيطرة عليهم.

فقد رأى الشاعر أن هناك قضيتين واضحتين:

الأولى: أن كلام الله صفة له، وكل ما هو صفة فهو قديم.

فكلام الله كلام قديم.

الثانية: أن القرآن كلام الله، وهو مركب من حروف مرتبة متناقية في الوجود، وكل ما هو كذلك حادث ففي القرآن حادث ومخلوق.

هاتان القضيتان، كانتا سببا في تشتت أفكار الناس، وجرهم إلى منازعات جدلية شديدة، ومحاكمة، دخول العامة في النزاع.

(22) المواقف 79/79.
وأو كانت موضوع النزاع محدودة، لا تحسم كثير من الخلاف، ولكن هذا لم يصل إليه العلماء، الا بعد أن أغمض السيف، وحدثت الأفكار.
وتكلم العلماء وحدهم.

هذا هو الجانب النظري من مسألة خلق القرآن.

فماذا عن جانبها السياسي؟

ان الجانب السياسي من هذه المسألة، يتمثل في تدخل الحكومة في شأنها، وتنفيذها بقوة الدولة، مما جر الكثير من ورائه.

وقد مرت الاعتراء إلى القول بخلق القرآن في آخر الدولة الأموية على لسان الجعد بن درهم، وتبعته في ذلك الجهم بن صفوان شيخ الجهمية، الذي كان ينفي الصفات، واستتبث ذلك نفي الكلام والقول بخلق القرآن.

والرواة يحدثونا أن بشرا المربي، كان يقول بخلق القرآن، وذلك في أيام الرشيد، وظل يدعو إلى ذلك نحو من أربعين سنة.

ويؤلف في ذلك الكتب، ومات عام 218 هـ (733).

ولقد وردت المثيرلة هذا القول عن الجعد بن درهم، فقالوا بذلك واردوا المسألة تفصيلًا، وتوسعوا في الجدل، حتى رأينا المردار المعترض، يتوسع في هذا القول، ويكثر من يقول بخلق القرآن.

على أن الباحثين يختلفون، في أن المسلمين تأثروا في قولهم بخلق القرآن، باليهود، كما يروى ابن الإثير، أو بالنصارى الكاثوليك.

(23) تاريخ بغداد - الخطيب 17/7/642
يَا إِبْنِ عَبِيصَةَ اللَّهُ، وَلَا يُصَحُّ لَكَلِمَةُ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ مَخْرَجةً وَلَا جَارِيَةً
المسلمون السُّجَيِّينَ إِلَّا وَقَدْ جَازَى
هَذَا الْأَمَرَ فِي الْحَدِيثِ عِنْدَ الْجَانِبِ الْبَيْضِيِّ مِنَ الْمَلَايِـسِ.

وَيَظِهَرُ مِنْ هُذَا الْعَرْضِ أَنْ مَسَأَلَةَ خِلْقَ الْقَرَانِ، ظَلَّتْ تَتَنْمَى... بَعْدُ
ذُبُورُهَا فِي أَخْرَجَةِ الْدُّنْيَا الْأَوْمَرِيَةِ، وَيَدْخُلُ عَلَى الْجَدْلِ، وَتَتَنْسَى دَائِرَةُ
المُقَابَلَةِ، وَيَتُولِفُ بِهَا الْكِتَابُ إِلَى عَدَدِ الْأَمُوَّنِ.

وَلَمْ يَفْكَرَ أَحَدُ مِنْ قَبْلِ، فِي أَخْتِذَاهُ هِذَهِ المَسَأَلَةِ، دِينَا رَسْمِيًا
لَّدِي الْأَمُوَّنِ، حَتَّى جَاءَ الْأَمُوَّنِ.

فَلَقَدْ كَانَ الْأَمُوَّنِ عِلْمًا وَقَوْمًا عَميَّةً، وَكَانَ مَعَهُ بَالْبَحْثِ
العُلَمِيَّ، وَالْأَدْبِيَّ، يَنَافِئُهُ قَاَزُ قَاَزَ، وَرَأْسَ الْعُلَمِ، وَرَأْسَاءْهُمْ
فِي الْفَقْهِ، وَالْأَدْبِ، وَالْبَيْنِ التَّارِيِخِ، وَالْكَلَمِ، هُذَا إِلَى جَانِبِ مَا كَانَ يَتَضَفَّعُ بِهِ
مِنْ حُرْيَةِ فِي الْمُتَّفَكِرِّينَ، إِلَى التَّقَهُّدِ بِأَصْوَلِ الْدِينَ.

وَقَدْ تَنَاقِلَ النَّاسُ عَلَى الْمُسْتَنِئِهِمْ مَا كَانَ يُجُرُّ فِي مَجَالِهِ مِنْ
الْجَدْلِ، وَالْمُسَأَلَةِ، فَتَنَاَيْدُوا هُمْ كَذَلِكَ، وَكَانُوا مُتَسَلِّطِيَّاءَ لِلْجَدْلِ
القَرَانِ، وَقَدْ قَبَّ إِلَى الْمُتَسَلِّطَةِ مَنْهُ، وَقَدْ شَرَبُوا ذُوْ نَقْدَ مُنْفِذَ
قَرَانِ، لَكَنْ الْاستَعْتِزَالُ كَانَ أَقْبَرَ الْمَذَاهِبِ إِلَى نَفْسَهُ، لَكَنَّهُ أَكْثَرُ حُرْيَةً، وَأَكْثَرُ اسْتَعْتِزَالًا
فِي مَعَالَةِ، وَكَانَ مَثَامًا بِنَبِيِّ الْأَشْرَشِ، وَأَحْمَدَ بِنْ أَبِي دُوَّادٍ، مِنْ أَظْهَرِ
رَجَالِ الْاستَعْتِزَالِ الْمُدُرِّ (٢٤).

وُقِيَّت مَسَأَلَةٌ جَدِيَّةٌ، شُخِّلَتْ الْجَمِيْعُ فِي ذَلِكَ الْوَقُتُ، فَهُمْ يُظْلَمُ
الْاستَعْتِزَالُ مَدَّهُ كَثِيرًا مِنَ الْمَذَاهِبِ كَالْأَرجِجَاءِ، وَنَحْوَهُ، فَيُكَثِّبُ كَلَّ اسْتَمَانٍ
حَرَّاً آن يَعْتَبِقُ مِنْهَا مَا يَرَاهُ عِنْهَا، دُونَ أَنْ يُقَبِّلَ الْرَّجَالُ الْمُدُرِّ فِي ذَلِكَ،
مَا دَامَتْ المَسَأَلَةُ مَجِرًّدُ أَرْأَاءٍ دَاخِلَ حَدُودِ الْإِسْلاَمِ؟ أَنْ تَتَنَفَّذَ الْدُولَةُ
(٢٤) ضَحَى الْإِسْلاَمِ ٣/١٦٣٠
الاعترال شعرا لها وتتحمل الناس عليه، ويكون مذهبها الرسمي كما
أن الإسلام دينها الرسمي؟

وقد ظهر تبعا لذلك: تياران:

أحدهما: يرى أنه لا شأن للدولة بذلك، ف الناس أحرار في اعتقاد
ما يرون، ولا ينبغي لل الخليفة أن ينصح مذهب علي مذهب.

وكان هذا رأى يحيى بن أكثم قاضي القضاء في عهد الأئمة، إذ
نراه يقول للمؤمنين حينهم بعلم معاوية: وإنرأي أن تدع الناس
على ما هم عليه، ولا تظهرون لهم أنك تميل إلى شريعة من الفرق، فان ذلك
أصلح في السياسة، وأخرى في التدبير.(٢٥)

ثانيهما: يحسن لل الخليفة الرأي في حمل الناس على ما تثبت عنهم
صحته وكان ثمامة بن الأشرس، وأحمد بن أبي دؤد من أظهر هؤلاء.
وقد تغلب الفريق الثاني، بعد وفاة يزيد بن هارون الواسطي، وزعم
قاضي القضاء يحيى بن أكثم، وتولى ابن أبي دؤد مكانه، وحمل
المؤمن الناس على القول بخلق القرآن سنة ٩٢٨ هـ.

والواقع أن الأئمة كان مع قوة شخصيته يتأثر برأى من حوله،
فمن قبل، أدخل المسائل الدينية في شؤون الدولة، فأعلن تفضيل على
بن أبي طالب على أبي بكر وعمر، واغضب كثيرا من الناس، ونادي
كذلك من قبل، بتحليل نكاح المتمعة، مما صنح عنه من حديث حل
المتمعة حتى أقنعه يحيى بن أكثم، برواية الأحاديث في رمته عن الزهري.
وإقامة البراءين على حرمتها، فأثار بالنادرة بتحريمهما، بعد أن كان
أمر بها.(٢٦) فهيو من قديم يميل إلى حمل الناس على ما يعتقد أنه

(٢٥) تاريخ بغداد - طبعة - ص ٩١ وما بعدها.
(٢٦) وفيات الأعيان - ابن خلكان 3٢٤/٣.
الحق في مسائل الدين ونصره المعتزلة وشجعوه على ذلك، لأنهم بالقول في أصولهم بالقول بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولقد كانت مسألة خلق القرآن هي المسألة التي كانت الشاغل في زمن الأمام وما كثر فيها من قول وجدل، إذ أنها تبنى على أحكام من أصولهم وهو التوحيد وعدم تعدد صفات الله، ولذلك ساعدوا الأمام في ميلة، وكان أحمد بن أبي دؤاد زعيمهم في هذه المسألة. وقد ظلت هذه المسألة شاغلة الدولة والناس من عام 318ه إلى 433ه، وقد سُميت في التاريخ بالحنة، بمعنى الامتحان والاختبار.

وقد استعمل هذا النطاق فيما لقيه الأثبات من العذاب، فصبروا على دعوتهما، وفيما لقيه الشيعة من التعذيب والصابر على ما أبتلاه، ثم استمر استعماله في اختبار العلماء بخلق القرآن، وما لقوم في ذلك من عذاب.

ويذكر الرواه أن هذه الفكرة نضجت عند الأمام، واعتقدها من أظهر الأمام التنوال بخلق القرآن، ثم في عام 318ه امتحن الناس بذلك من ذلك يمكن القول بأن الأمام كان يتكلم في خلق القرآن في مجالسة الخاصة إلى عام 312ه، ثم أعلن رأيه على الناس في تلك السنة، دون أن يضطرهم إلى القول به، ثم كانت الخطوة الأخيرة عام 318ه، حيث حمل الناس على ذلك.

وقد بدأ الأمام خطوته هذه عام 318ه، برسالة كتاب إلى والي بغداد اسمه بن إبراهيم، بدأت بالسبب الذي حمل فيه الناس على ذلك، فراجح خليفة المسامين حفظ الدين، راجئته، والعمل بالحق (35-س).
في الرغبة، فقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسود الأكبر من حشو الرغبة وسيلة العامة، مكن لا نظر له ولا رواية ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته، ولا استضاء بنور العلم وبهرائه في جميع الأقطار والاقاف، أهل جهالة بالله وعمى عنه، وضلالة عن حققية دينه وتوحيده والأيمن به، ونكوب عن واضحة إعلامه وواجب سبيله وقصدرو أن يقدروا الله حق قدره، ويعرفوه كنه معرفته ويفترقا بينه وبين خلقه، لميستع أرائهم ونتظر عقولهم وجبالهم عن التفكير، والتذكير، وذلك أنهم سلوا بين الله تبارك وتعالى، وما أنزل من القرآن فأطلقوا مجتمعين على أنه ( أي القرآن ) قديم أزلي لم يخلقته الله وحده ويخترقه، وقد قال عز وجل في مخلص كتابه الذي جعله ما في الصدور شفاء، والمؤمنين رحمة: " أنا جعلناه قرآنا عربيا ". فكلا ما جعله الله خلقه وقال: " الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والثور " وقائل عز وجل: " كذلك نقص عليك من أبناء ما قد سبق "، فأخبر أنه قضى لأمور أحدثها بعده وتلا به متقدمها، فتناول تعالى: " إن الكتاب أحكمت آياته ثم فصلت من أدن حكيم خبر " وكل مفصل طاله، والله محكم كتابه ومفصله، فهو خالقه ومبتدعه. ثم هم الذين جاءوا بالبطل فذعوا إلى قولهم ونسوا أنفسهم إلى السنة، وفي كل فصل في كتاب الله قضى من تلاوته مبطل قولهم ومكذب دعواهم، يرد عليهم قولهم ونحلتهم. ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والمجلة وآن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة، فاستطاعوا بذلك على الناس وغروا به الجهال، حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب، والتفشى لغير الله والتششف لغير الدين إلى موافقتهم عليه، وإماتتهم على شيء أراءهم. نزينا بذلك عنهم وتصننا للرياض والعدالة فيهم، فتركوا الحق إلى باطلهم واتخذوا دون الله ولبيبة إلى ضلالتهم" (77)

(77) تاريخ الطبري، تاريخ بغداد
وقد أتتهم الأطهار هؤلاء بفساد المعتقد، وأنهم متهمون في صدمة، وغير موثوق في قبولهم وعملهم. طلب من عامله على بغداد أن يجمع من بحثه من القضية، ويقرأ عليهم كتابه إليه، ويدأ بامتنانهم فيما يقولون، وتكشف ما يضطرون في خلق الله القرآن وأهداؤه، وأن يعلمهم أن الظيفه لا يستعين في عمله، ولا يأتيهم على أمور رعيته، فمن لا يوثق بدينه وخلاص تجاهه ويقيمهم، فذا أقرأوا بذلك، فقيل لهم أن يأمر بنص من يحضرهم من الشهداء على الناس، ومسائلهم عن علمهم في القرآن، وترك أثبات شهادة من لم يقرأ أنه مذكور محدث، وإن يكتب إلى الخليفة بما يكون في ذلك.

ونحن نستخلص من هذا الكتاب أن الأمور كان يرى وجوب تصحيح عقائد الناس المبهمة، إذا ما تقلص الفساد إلى أصل من أصول الدين، كالإسراوع مع الله في القدم شيئا آخر مثل القرآن، لأن كثيرا من عامة الناس كانوا يتكلمون في مسألة خلق القرآن ويزرون أنه قديم ولهم علماء متركون يدعوهم إلى ذلك، وأن بعض القضاة كان على هذا الرأى بالقول بأن القرآن قديم، وكان يقبل شهادة من ينزل بقدمه، وقد يرد شهادة من يقول بحذره، وأن القاضي أو الشاهد غير موثوق بقضايا ولا بشهادته إذا لم تصح عقيدته، فالمعتقد بقدم القرآن ضعيف التحديد شيء المعتقد غير مؤمن على شهادة ولا حكم.

فهو متهم بالكذب في الشهادة والظلم في الحكم.

وقد اقتصرت الخطوة الأولى للأطهار على هذا، فلا تعذيب، ولكن لا يتولى أحدهم إلا من وتلق به وقال أن القرآن ما وافق لأنه برهان صحة المثل، ودليل صحة الإيمان (28).

(28) ضحي الإسلام 168
ومن الواضح أن روح الاعترال تظهر على كتاب الأمون إلى وإلى بغداد وكذلك تبديت المعتزلة وحتجتهم في التوحيد، كما يظهر فيه طابع المعتزلة، الذي يمنح بين التخصص الحاد وحرية الفكر الفرطه.

لذلك تمكن غريبا على الأمون، وهو الحاكر الفكري، الواضع لعقل، إن يخرج عن حرية كالمعتزلة، بعد أن وصل إلى التوحيد واعتقد أن التوحيد يقوم هذا التوحيد، ويأتي أن يتولى أحد القضاة عالمه، إلا بعد أن يوجد توحيده.

ولقد كتب الأمون بعد ذلك إلى أسحق بن إبراهيم أيضا، بارسال سبعة من كبار المحدثين الذين كانوا يشمون على الأمون بخلق القرآن، وكانوا من رؤوس من يقولون بقدم القرآن، وهؤلاء السبعة هم:

محمد بن سعد صاحب الطبقات الكبرى، وأبو مسلم مستلي يزيد ابن هارون المحدث ويحيى بن معيّن، وزهير بن حسب، واسمهيل بن داود، واسمهيل ابن أبي مسعود وأحمد بن الدورقي، وعل الأمر كان يرى أنهم أن احتروا أمامه، كان ذلك أرهب لهم، فتنقطع الفتنة بعد أن يحملهم الخليفة على متابعته فيما يطول، وينقد الناس لهم، غير أن هؤلاء العلماء، وإن كانوا قد أجابوا بأن القرآن مخاويف أمام الخليفة، لم يكن لاعترافهم أي صدى في أخذم فتنة الناس.

ولم يكن اسم أحمد بن حنبل بين هؤلاء السبعة، أما لأنه لم يكن معرفياً إذ ذاك بشدة المعارضة، وإن شهره في هذا أنت بعد هذا التاريخ، واما أن أسسهم كان بين هؤلاء، ولكن أحمد بن أبي دؤاد استبعده، لمعرفته بلصلابته.

ويرى أن ابن حذبال حزن لهذا الصادق، وقال: "أوب كانوا صبروا، وقاموا الله، لكن انقطع الأمر وحذرهم الرجل (أي الأمون)."
ولكن لما أجابا، اجتزاً على غيرهم، وكان يقول عند ذكرهم:

«هم أول من تلم هذه الثمرة».

ولنلاحظ أن المؤمن في تلك الخطوة الثانية، لم يكتب بحرمان من ليس على مذهب من مناصب الدولة، فحسب، بل أراد حمل الفقهاء والمحدثين على الافترار بخلق القرآن، لذلك فإنه اعتقد أنه هو خليفة المسلمين وراعيهم - مسؤول عن رعيته، ومن هذا أنه مسؤول عن ترحيدهم، ومدائم القول بقدم القرآن شبه إشراك، فمن الواجب أن يرد الناس عن ذلك كما يرد الكافر عن كفره، والخطوة الثالثة أن يقتله كما يقتل المرتد، ومدائم العلماء قادة الناس في هذه العقيدة، فمن الواجب الابتداء بهم، وخصصه، وعقابهم، إذا أصروا، بل بقتهم أحياء.

لذلك نجد المؤمن في كتابه الثالث، إلا عامة، فاستحق بن إبراهيم.

يرجح هذه المعياني فيقول في هذا الكتاب:

ومما تبينه أمير المؤمنين بروزه وطاعته بفكره، تببيع عظام خطره وجليله، ما يرجع في الدين من وكفته وضربه، ما يبالي المسلمون من القول في القرآن الذي جعله الله آمنا لهم، وآراه من رسول الله صلى الله عليه وسلم بقين لهم، واشتباه على كثير، من، حتى حسن عندهم وترزين في عقولهم، لا يكون مخلوقا، فنهاوا به قول النصارى في ادعائهم في عيسى بن دoire، أنه ليس بملوك، إذ كان كلمة الله وله عن جنابه، فنقول: "أنا جعلناه قرآننا عربيا"، وتأويل ذلك، أن خلقناه كما قال جل جلاله: "وجعل منها زوجها ليسكن البها"، وقال: "وجعلنا لليل لباسا وجعلنا الليل ماء معاشنا"، "وجعلنا من الماء كل شيء حي". فستر الله عز وجل بين القرآن وبين هذه الخلافة التي ذكرها 200، فقد عظم هؤلاء الجهلة - بقولهم، في القرآن، فالمثل في
دينهم والجرح في أمانتهم وسلوا سبيل لعدو الإسلام ... ووضعوا خلق الله وفعله بالصفة التي هي وحدته، وشبهوه با ... وليس يرى أمير المؤمنين أن قال بهذه المقالة حظًا في الدين ولا نصيحة من الإيمان والبحثين، ولا يرى أن يحل أحدا منهم محل الثقة في أمانة ولا عدالة ولا شهادة ولا حكما في قول ولا حكما، ولا تولية شيء من أمر الرعية. وان ظهر قصد بعضهم، وعرف بإسلاد مشهد فيهم فإن الفروع مرودة إلى أصولها، ومحمولة في الحدود والذم عليها ومن كان جاهلا بأمر دينه الذي أمره الله به من بحذائه، فهو بمثابة أعظم جهلاء فاقرأ على جعفر بن أبي في عبيد الرحمن بن أسحق القاضي، كتب أمير المؤمنين، بما كتب به الملك، وأنصفهما عن علمهم في القرآن، وأعلهما أن أمير المؤمنين لا يستن في شيء من أمر المسلمين إلا بمن وفق بإخلاص وتوحيد، وأنه لا توحيد لم يقر بأن القرآن مخالق، فكان قالا يقول أمير المؤمنين في ذلك: فتندفع اليهما في امتحان من هر بالحقائق بالشهادات على الحقوق ... فمن يقتل منهم أنه مخلوق أبطال شهادته، وأن ثبت عقليه بالقصد والسداد في أمره، وأفعل ذلك بنفسي عملك من المقالة، وأشرف عليهم إشارةً يزيد الله به ذا البصيرة في بصيرته، ويمنع المرتب من أغلق دينه وأكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون هناك في ذلك إن شاء الله ... وعللأني نورد هنا بعض النماذج من الأسئلة، والأجوبة عنها كما وردت في كتاب التاريخ:
النموذج الأول:

أسدح بن إبراهيم: ما نقول في القرآن؟
بشري بن الويلد: القرآن كلام الله
أسدح: لم أسألك عن هذا. أمخلوق هو؟
بشري: الله خلق كل شيء.
أسدح: هل القرآن شيء؟
بشري: هو شيء.
أسدح: فمخلق هو؟
بشري: ليس بخلق.
أسدح: لا أسألك عن هذا. أمخلوق هو؟
بشري: ما حسن غير ما قلت.

النموذج الثاني:

أسدح: هل القرآن مخلق؟
علي بن أبي مقات: القرآن كلام الله.
أسدح: لم أسألك عن هذا. أمخلق هو؟
علي: هو كلام الله، وان أمرنا أمير المؤمنين بشيء، سمعنا، وطممنا.

النموذج الثالث:

أسدح: هل القرآن مخلق؟
أبو حسان المزيادي: القرآن كلام الله، والله خلق كل شيء، وما دونه
الخلق، وأمير المؤمنين أمامتها، وقد سمع ما لم نسمع، وعلم ما لم نعلم.
وان أمرنا احترنا، وأن نهانا انتهينا، وأن دعنا أجبنا.
أسدح: هل القرآن مخلق؟
أبو حسان: (يعيد مقالته).

أسحق: هذه مقالة أمير المؤمنين.

أبو حسان: قد تكون مقالة أمير المؤمنين ولا يأمر بها الناس ولا يذكرونها. والله يذكرها دومًا، وأمرك أن تقول ما أمرتك فأنك نقلت النقلة للمؤمنين.

أسحق: ما أمرنى أن أبلغك شيئًا، وإنما أمرني أن أتمكن.

النموذج الرابع:

أسحق: ما تقول في القرآن؟

أحمد بن حنبيل: هو كلام الله.

أسحق: مطلوب هو؟

أحمد: هو كلام الله لا أزيد عليها.

أسحق: ما معنى أنه يتألل سمعه بصير.

أحمد: هو كما وصف نفسه.

أسحق: قما معناه؟

أحمد: لا أدرى، هو كما وصف نفسه.

النموذج الخامس:

أسحق: ما تقول في القرآن?

ابن البكاء: القرآن مجعل لقول الله تعالى ًأنا جعلتنه قرآناً عربيًا ًوالقرآن محدث لقوله ًما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث.

أسحق: فالمجعل مطلوب؟

ابن البكاء: لا أقول مطلوب، ولكن مجعل.

أسحق: فالقرآن مطلوب؟

ابن البكاء: لا أقول مطلوب، ولكن مجعل.
ولقد حرر أسحق بن إبراهيم محضاً بجميع أقوال الذين امتحنهم وأرسلها إلى الأمهدين؛ فثار ثائرته، واشتد غضبه، ذلك لأنه رأى أن أقوالهم لا تدل على عقل، ولا تنكر في صراحة ولا تذكر في صراحة، والبعض يسلع بالقدمات وينكر النتيجة، فيقول القرآن مجمل:

والملحول مخلوق، ولا يرضى القول بأن القرآن مخلوق، بلجع كتبته وراضع إلى أسحق، وهو في حال من الغضب شديدة، يأمره أن يعج الكورة عليهم، فمن أجل منهم، حملهم أجمعين سيدتين إلى عسكر أمير المؤمنين مجمع، من يقول بحفظهم، وحراستهم في طرقيهم، وسلمهم إلى فرقهم يحملهم ليه، لي.Config شهم أمير المؤمنين، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعاً على السيف.

وقد أعاد امتحان نهر من ثلاثين قاضياً ومحدثاً وفقين، وقرأ عليهم كتائب أمير المؤمنين، فأجروا جميعاً بأن القرآن مخلوق، إلا أربعة هم: أحمد بن حنبل، وسجادة والقراوري ومحمد بن توح. فحملت أسحق في الحديقة، وأعاد امتحانهم مرة ثانية، فاعترف سجادة بكل القرآن، وتبعت القراريره، ولم يبق إلا ابن حنبل ومحمد بن نوح. فشدا في الحديقة، ووجههما إلى الخليفة في طرسوس. وكتب أسحق كتاب إلى الأمهدين يذكر فيه أن القول الذين أجزوا، لم يجيروا عن عقيدة، وإنما من تأويل، وهم مكرون، وليس على المكره من حجر. فأرسل إليه الأمهدين كتاباً خامساً يعان أن هؤلاء أخطأوا التأويل، وليست الآية "لا من أكره وقلبه مطمئن بالأيمن" من طبقة عليهم إنما عن الله، بهذه الآية من كان يعتقد الأيمن مظهر الشرك.

فأما من كان يعتقد الشرك مظهر الأيمن، ليست الآية له. وأمر بإخلاص من أبيه، ألا يبلغ في طرسوس عدوهم واحد وعشرون من المنتفعين عن الاقتراب بخلق القرآن، ولكن وفاءة الأمهدين بلغتهم حين بلغوا مدينة الرقة، فأعيدوا إلى بغداد حيث خلف اسوئ سبأهم أكثر.
وقد مات محمد بن نوح وهو عائد إلى بغداد بعد موت الأمام
وصلى عليه ابن حنبل، الذي تركزت المعارضة فيه، فكان زعيمها
وعلمه، وقبيلة الأنظار فيها، ونذكر لم يخل سبيله، مثل غيره.
وتولى الخليفة المعتصم الحكم، بعد أن أوصاه الأمام أن يأخذ
بسيته، وأن يحرص على أشراف ابن أبي دواد في المشورة.
وكان المعتصم رجلا جنديا، ليس كأخيه الأمام العالم الملك
قلما بложений العلماء، ولم ينظرهم في قصره كما كان العهد أيام الأمام،
لذلك نهض بتنفيذ الامتحان بخلق القرآن، وألزم نفسه بذلك، وكتب
الي الامصار بالاستمرار في امتحان الناس بخلق القرآن، وامر بتعليم
الصبيان ذلك، وقشت في هذه المسألة خلقا من العلماء وضرب الامام
ابن حنبل سنة 320 هـ.
فأما الامام ابن حنبل، فقد أصر على الامتناع عن القول بخلق
القرآن، وأصر على دولة المعتصم على حمله على ذلك، وقد حز أعياب
الجمهور ل maçاليته، واسخط رجال الدولة لأنه تحداهم، ورفض
ما نصحه به زاروه، من القول بخلق القرآن تلقية، كما قال غيره
من العلماء وكان يقول: "إذا أجاب العالم تلقية، والجاهل بجاهل، فمثلي
يتبين الحق" وقد ذكرنا له ما روى في الت柵ب من الأحاديث فقال:
"كيف تصنعون بحديث خباب: ان من كان قبلكم ينشر أحاديثهم بالانتشار
ثم لا يصده ذلك عن دينه؟" (29).
وتذكر المراجع — مثل طبقات الشافعية لابن السبكي حلية الأولياء
لابن نعيم — أن المعتصم دعا بهحضر ابن أبي دواد وأصحابه.
(29) تاريخ الخلفاء 1371.
وقد غضت الدار بالقضاء والفقهاء من اتباع الدولة وأمرهم المعتصم.

أن ينازروه وهذا مثل هذه المناورة.

المعتصم: ما تقول؟

ابن حنبل: أتّم أشهد إلا الله إلاّ إله واحدٌ نحكي عن وفد عبد القيس عام الدوم قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرهم بالإيمان بالله فقالوا: أتدرون ما الإيمان بالله؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. نفر: شهادة إلا الله إلاّ إله واحدٌ مهدم رسول الله وآياته.

صلاة وإفطار الزكاة وصوم رمضان، وأن تعطوا الخمس من المغنم. يعنى أن ليس من قول بخلق القرآن) يا أمير المؤمنين أعطوني شيئًا من كتاب الله. أبو حنيفة.

أحد الاحضرين: قال تعالى: «ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث؟

أيكون محدث إلاّ مخلوق؟

ابن حنبل: قال الله تعالى: «والقرآن ذي الذكر» فالذكر هو القرآن، وتلك ليس فيها ألف ولام.

آخر: أليس قال الله خلقت كل شيء؟

ابن حنبل: قال تعالى: «تدمر كل شيء بأمر ربي» فهل دمرت الأما أراد الله؟

ثالث: ما تقول في حديث عمر بن حمصين: «إن الله خلق الذكر؟

ابن حنبل: هذا خطأ، ان الرواية: «ان الله كتب الذكر».

رابع: جاء في حديث ابن مسعود: «ما خلق الله من جنة، ولا نار، ولا سماء ولا أرض أعظم من آية الكرسي».
ابن حنبل: إنّما وقع الخلق على الجنة والنار والسماء والأرض.
ولم يتقَّرّ على القرآن.
خامس: إن القول بأن كلام الله غير مخلوق يؤدى إلى التشبيه.
ابن حنبل: هو أحد صمد لا شبيه له ولا عدل وهو كما وصف به نفسه.
المعتصم: ويتك ما تقول؟
ابن حنبل: يا أمير المؤمنين أعطوني شيئًا من كتاب الله أو سنة.
رسوله.
بعض الحاضرين بحاجة بحجة عقلية:
ابن حنبل: ما أدرى ما هذا، إنه ليس في كتاب الله ولا سنة.
رسوله.
بعض الحاضرين: يا أمير المؤمنين إذا توجّهت له الحجة، علينا.
وثب، وإذا كننا بشيء يقول لا أدرى ما هذا.
ابن أبي داود: يا أمير المؤمنين، إنه ضال مضل مبتدع.
ثم ينفّض المجلس، ويعاد إلى الحبسب، ثم يماوندون مناقشته في.
مجلس آخر، واستمرت مناقشته ثلاثة أيام.
وبعدها أمير المعتصم.
بضربه بالسياطحتى سالَ دمه، ثم أرسل إلى السجن.
وقد حرض ابن أبي دؤاد المعتصم على قتله، ولكن المعتصم اكتفى.
بضربه، ثم أمر به فخلّ سببه.
ولعل أحمام المعتصم عن قتله يرجع.

(23) انظر هذه المناطرات في طبقات الشافعية لابن السبكي وحليه
الأولية، لأبي نعيم.
إلى أن جمهور الناس التفتوا حول ابن حنبل أكثر من التنافهم حول
أي شخص آخر، وقد تكون الفتنة أن قته المعتصم.

وقد يعود عدم قته، إلى أعجاب المعتصم بشجاعته وثباته على
ما يعتقد أنه الحق، فلم يخف ولم يهن، وكان المعتصم بطبيعه شجاعا
هذا بالإضافة إلى أنه قرأ في وجه ابن حنبل، أنه ليس منافق
يتظاهر بالورع، بل رأى أنه يتكلم عن عقيدة، ويصرح بأن الله قد
وليس كمثله شيء، إلا أنه لا يقبل بخلق القرآن، لأن الله تعالى:
لم ينزل ذلك، ولم يقل ذلك، ولم يدع إليه الرسول.

وبهوب المعتصم، ويخلفه الواثق عام 232 هـ، وكان واسع
التقافة وكان يسمى الأمور الأصغر لأدبه وفضله، بل أنه كان يفضل
على الأمور لأنه كان أكثر رواية للشعر العربي عن الأمور، فتعصب
لقول بخلق القرآن عن علم وعقيدة.

ولم يتعرض الواثق لأحمد بن حنبل، ويرى الرواة أن الخليفة
أمره والإيساكه بأرضه فاختفى أحمد بن حنبل حتى مات الواثق.

وبهوب الواثق عام 232 هـ، ويخلفه المتوكل الذي لم يتحمس
للقول بخلق القرآن، لذلك فترت حركة الامتداد حتى 434 هـ، حيث
نفي فيها عن القرآن بخلق القرآن وكتب بذلك إلى الآفاق، وتوزف له
ذاتها إلى الخلق له، وانتها عليه عظيم النعمة، حتى قال القائلون: الخلفاء
ثالثة: أبو بكر الصديق يوم المردة، وعمر بن عبد العزيز في رده
المظلم والمتسول في أحياء السنة، وذلك على ما كان عليه من ظلم
وعصف (31).

وقد شغلت مسألة خلق القرآن، الناس في كافة الأقطار الإسلامية.

(31) طبقات الشافعية للسبكي.
وكان الجدل بين العلماء، وامتحان الأمراء للعلماء والقضاء والحكم في مصر وفي الشام وفي فارس، كما حدد في العراق، مستنير دولة الخلافة الباشية.

وفي مصر، يمتحن والي مصر نصر بن عبد الله الملقب كيدر نوادي مصر هارون بن عبد الله الزهري، وذلك بعد ثلاثة شهور من صدور كتاب الأمون الأول، إلى أسحاق بن إبراهيم والي بغداد، عام 218 هـ. وقد أجاب القاضي هارون بالقول بخلق القرآن، ثم امتحن الشهود فمن توقف عن القول بذلك سقطت شهادته، وكذلك امتحن التضاحـ.

وعائل الحديث وغيرهم (32).

وتوالى الولاء على مصر، في عهد الأمون ثم المعتصم، وهم يمتحنون العلماء بمصر. ويتذكر أبو المحاسن صاحب النجوم الزاهرة، أن موسى بن العباس الذي أولى حكم مصر سنة 319 هـ إما فقهاء مصر وعلماءهم إلى أن أجاب غاليها بالقول بخلق القرآن (33).

وقد كان قائدي مصر في أيام المعتصم والـواثق، محمد بن أبي الليث من أشد الناس تحمسا للقول بخلق القرآن وتعذيب من أنكر من الصريبين وكان ينظر المعتزلة، وكان حنفي المذهب، يكره الشافعية والمالكية ولذا فقد اضطهدهم وأورى نار الحنن بخلق القرآن لتعذيبهم والابتعاد بهم.

ويذكر شاعر مصر إذ يذكر الحسين بن عبد السلام، ما فعله محمد ابن أبي الليث تنكيـال بالشافعية والمالكية، حتى اعتترفوا بخلق القرآن فيقول من قصيدة له:

(32) النجوم الزاهرة - ابن تغري بريدي 218/6
(33) نفي المصدر 272/6
كل ينادي بالقرآن وخليقه
فشهيرتهم بدمالة لم تشهر
لم يرض أن نطقه بهـا أفواههم
حتى المساجد خلقه لم تتكسر
لما أريتهم الردى متصورا
زعموا بأن الله غـير مصـور

وقد لزم بعض الناس من جراء ذلك بيته فلم يظهر، وبعضهم هرب إلى اليمن، وكان ممن هرب ذو النسون المصري الصوفي، ثم قبض عليه وامتحنه وأقر. وقد مات ابن أبي الليث السجوب من أنكر خلق القرآن، ولم يبق عالم ولا فقيه ولا محدث ولا معلم، ولا مؤذن.

لا وقد أخذ بالمحلة.

وقد بلغ الأمر بهذا النضال، أن أمر أن يكتب على المساجد:

لا اله الا اَللَّاه رب القرآن الخلق.

ومنع الفقهاء من أصحاب

مالك والشافعي من الجلس في المساجد، وأمر الآتى به(43).

واستمر الحال كذلك أيام الواثق، حتى ورد كتاب الموثوق مصر.

فرغت المحتة، وسكت الناس عن هذه المقالة جملة.

وكان ممن ذاق النكال في مصر أيام الواثق صاحب الشفاضة

ووارث علمه، يوسف بن بني البوطي. فقد امتحنه والي مصر، بعد أن كتب إليه ابن أبي دؤاد، بذلك، وأبي البوطي يقول بخلق القرآن وقال: "أنا خلق الله الخلق بـ (كن) فذا كانت مخلوقة، فكان مخلوقا خلق مخلوق، ولئن أدخلت عليه (أي الواثق)، لأصدقته ولا موتين في حديث هذا حتى يأتي قوم يعلمن أنه قد مات في هذا.

(43) الولاية والقضاة اللاندري.
الشأن قوم في حديثهم » وقد حمل من مصر إلى بغداد ومات في سجنها عام 323 هـ.

ولقد انتهى نسائة بالولاية للأفراد، على مجالس العامة والعامة الذين صاروا يزكرون المسألة فيما بينهم، فإذا جلس جالس عالم مجالس سائل: هل القرآن مخاطر؟ وإذا خلا الناس بعضهم إلى بعض، تحدثوا في اختبار خلق القرآن، وبلغ الأمر مداه، حين أصبح يمس العلاقات بين الناس، فكان من يعده على آخر، يريد أن يفيد له انتهاؤه بأنه يقول أن القرآن غير مخلوق.

من ذلك ما ورد أن البخاري أتهم بأنه يقول أن الفعل بالقرآن مخلوق، فلا كان في نيسابة، وحضر الناس لسماعه قال اليه رجل فقال: يا أبا عبد الله، ما تقول في الفعل بالقرآن: أمخراق هو أم غير مخلوق؟ فأعرض عنه ولم يجيب، فأعاد الرجل السؤال فأعرض عنه، ثم أعاد: فالنفث إليه البخاري وقال: القرآن كلام الله غير مخلوق، وأفعال العباد والامتحان بدعه، فشب الرجل، وكذلذ شعب الناس وتفرقوا عنه.

ومما سبب شغبهم عليه، أنه أراد التفرقة بين القرآن وس كلام الله وبين القرآن الذي هو نطقنا به، وكتابنا له، وأراد أن يفسر أن الأول قديم، والثاني محدث، وكانوا يريدون القبول بأنه قديم حتى الفاضلة به.

وقد أصبحت مسألة خلق القرآن داخلة في المزاج والأدب، كما تطورت إلى الفتن والدسائس.

(35) طبقات الشافعية 2/102
فقد روا أن رجلًا من الظرفاء سمع آخر يقرأ قراءةً فريحة فقال:
أظن هذا هو القرآن الذي يزعم ابن أبي دؤاد أنه مخلوق، بعد هذا
العرض نعود لنسأل: ما هذه المسألة؟ وكيف وصلت إلى هذا المدى؟
وكيف أصيب المسلمون بهذا البلاء؟ وما سبب هذه المسألة وماذا كانت
وجهة نظر كل فريق؟ وما النتائج التي نجمت عنها؟

1- أن بعض الباحثين الحديثين (٣٦٥) يتقصى الداعي لعشر
الحكومة من معتزلة وخلفاء، فرًا أن نيتها كانت حسنة، وقصصتهم
حميداً ذلك أن المعتزلة من أول أمرهم رأوا أن عقائد الناس قد حاصل
بها الفساد، ووجب تصحيحها، والتصحيح في نظرهم يجب أن يدور
على توحيد الله وإجلاله، وقد جرحهم القول في التوحيد، إلى أن يكون
كل ممانيه، ورأوا أن التأويل يقدم القرآن تمديدًا للقديم، كما أنكرهوا
الصفات لما فيها من تمديد، وأنكرها رؤية الله لما فيها من تصريح، لذا
دعوا الناس إلى تنزية ديني وتوحيد فلسفي لا تجسيم فيه ولا تشببه
ولا تعدد، وبعثوا بهم إلى الأمصار والانتظار النائم لدفعه إلى
ذلك، وإذا أثبتوا لهم فرصة في سلطة وقوة استمروا في ممارسة
المجرم عن الدين والمائل إلى الألحاد، ولأدى بفهم الأمر إلى تقهعه.
وقد لبي دعواهم خلق كثر، وقد ظفرنا بتزيد الحكومة في آخر الدولة
الأموية، حتى جاء الأمر السياسي، سحل في فكرتهم، وجعل من قصره
مجمعاً للبحث والتنازل والجدال في حرية وصراحة، والالتزام، الناس
بما اتفق الرأي عليه، كما سلف أن ذكرناه، وشاء القدر أن يكون معلومًا
هذا، مسألة خلق القرآن، التي كانت تمس أصول الدين،
وهو التوحيد.

(٣٦٥) ضحى الإسلام ج ٣ ص ١٨٦١
وأَكَانَتْ هَذِهِ الْمُسَأَلَةُ أُوْضِحَتْ مِنْ غَيْرِهَا مِنْ مَسَائِلِ الاعْتِزَالِ كَرَؤِيَّةِ
اللَّهُ يُؤْمِنُ الْقِيَامَةَ أَوْ خَلَقَ الْأَعْفَاءِ، وَكَانَ عَدْرُ النَّكَرِ مَنْ ثَبَتَ فِيهَا أَضْعَفُ.
فَقَدْ يَسْتَطِيعُ الْجَبِيبُ عَنْ مَسَألَةِ رُؤْيَةِ اللَّهِ، إِنْ يَهْرُبُ بَانِداً سَنْتَكِنَّ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَلَقًا أَخَرُ، لَيْسَ عِينَتًا فِي الْآخِرَةِ، كَمِيْوَنَةٍ فِي الْدُنْيَا.
وَمَسَأَلَةُ خَلَقَ الْأَعْفَاءِ لَيْسَتْ جَلِيَّةٌ، فَفِي الْقُرْآنِ آيَاتُ تَدْلُّ عَلَى
هَذَا وَذَاكْ، أَمَا خَلَقَ الْقُرْآنَ، فَعِلْيُهُ الأَدْلَةُ العَقَلِيَّةُ وَالْنَّقْلِيَّةُ جَلِيَّةٌ.

٣— وَمِن نَاحِيَةٍ أُخُرَى١، فَمَن طَبَّاقَ النَّاسِ عَنْبِ الْعَضْرَةِ، العَطْفٌ
عَلَيْهَا، يَسْتَبْدِلُ فِي ذلِكَ المَعَارِضَةِ الْسِيَاسِيَّةُ وَالْمَعَارِضَةُ الْإِدْنِيَّةُ، وَهُمْ
أَشْدَدُ تَحْمِيْلًا للمَعَارِضَةِ الْإِدْنِيَّةُ١٠ لَذلِكَ وَقْفُ الْعَمَّامِ وَرِجَالُهُ فِي صَفٍّ
وَرَفَقُ هَؤُلَاءِ الْعَلْمَاءِ المَعَارِضُونَ وَالْعَالَمَةُ مِنْ وَرَأَيْهِمْ في مَعْسَكِرِينٍ
مُنْتَضِبِيْنِ.

وَكَلَّا اْزِدَادَ عَسْفُ الْعَكْوَةِ، أَفْرَطَ الْعَالَمَةُ فِي تَأْيِيْدِ المَعَارِضِ
وَأَخْذَتْ كَلَّ٤ خَطْوَةٍ تُدْفِعُ لَى مَا وَرَأَهَا، وَقَدْ رَأَيْنَا أَنَّ المَتَصَمِّمَ كَانَ
تَزْعِيمُ الْعَكْوَةِ وَحَرْطَبُ عَلْمَاءِ الْعَلْمَةُ وَرِجَالُ الْمَعَارِضَةِ، وَزِعْمُ المَعَارِضَةِ
كَانَ أَبُنِ حَنْبِلٍ وَمِنْ جُلُوْسِهِ قَاضِبُ الشَّعْبِ.

وَأَصْبَحَ رَجُوعُ الْعَكْوَةِ، مَعْنَاهُ ضَبْاعُ هِبَتِهَا، وَتَمْكِنُ الْعَالَمَةُ
وَقَدْ تَمَتْ الْجِهَالَةُ فِي نَظْرِهِمْ— مِنْ السيَّطَرَةِ عَلَى الْعَكْوَةِ، وَفِي هَذَا
الْخَطْرِ الْكَبِيرِ.

٣— وَأَمَّا وَجْهَةُ نَظْرِ المَعَارِضِيْنِ، فَقَالَ الْإِلَهُ أَنْهُمْ لَمْ يَكُنُوا عَلَى
رَأَى وَاحِدٍ كَمَا كَانَتِ الْمُنْتَلِخَةُ، بَلْ كَانُوا أَصْنَافٌ: فَمَنْهُمْ مِنْ كَانُوا في
بَاطْنِهِمْ مَعَ الْمُنْتَلِخَةِ فِي مَسَأَلَةِ خَلَقَ الْقُرْآنِ، بِيَدٍ أَنْهُمْ لَا يُرَدُّونَ أَنْ يُصَلَّ
هَذَا الْكَلَامُ لِلْعَالَمَةِ، إِذْ أَنْهُمْ لَيْسَوا أَهْلًا لِلنَّظِّرِ، وَيَوْرُونَ أَنْ يُسَدَّ
هذا الأب يداً، حفظاً لدين العامة، وهم السواد الأعظم في الأمة.
ولذلك فهم كانوا يجيبون، إذا سُئلوا، بأن القرآن كلام الله ولا يزولون
إن مخلوق ولا أنه غير مخالق. وقد زادهم إيماناً بهذا إنها مسألة
لم تثر في عهد النبي عليه الصلاة والسلام والسنة والمتقدمين.

من ذلك ما رواه الإبلا أن الرواق أتى الشيخ في حضره ابن أبي داود،
فسأل: ما تقول في القرآن؟ قال الشيخ: ابن أبي داود. لم نتصفح
ولى السؤال قيل: سأقَلُه灵敏. قال: هل هذا شيء عمله رسول الله صلى الله
عليه وسلم وأبو بكر وعمر والخلفاء أم شيء لم يعلمهم؟ فقال
ابن أبي داود: لم يعلموه. فقال الشيخ: سبحان الله، إنه لم يعلموه
أعلمته أنت؟ وفي رواية أنه أعاد عليه السؤال، فقال ابن أبي داود:
علمهم ولم يدعوا إليه. فقال الشيخ: هل وسعهم ذلك؟ قال: نعم
قال الشيخ: ألا وسعك ما وسعهم?

ومن أجل هذا كره الإمام ابن حنبل أن يتكلم أحد في المسألة
بنفسي أو ابنه: فقد روى أنه قيل للكرابيسي: ما تقول في القرآن
قال: كلام الله غير مخلوق. فقال له السائل: فما تقول في فظي
القرآن؟ فقال: أفظك به مخلوق؟ وحين روى هذا للإمام ابن حنبل
قال: هذه بدعة.

ويؤى أن السائل رجع إلى الكرابيسي ونقل له قول أحمد
واستنكره فقال الكرابيسي: إذن، فتشتت بقوله. القرآن غير مخلوق.
فربك لابن أحمد. فذكر ذلك أيضاً وقال: هذه بدعة. وهذا يدل... كما
ذكره الشيخ في طبقات الطائفية. على أن الكلام في أصل المسألة
غير مخالق، عند الفقه الذين لم ينكروا أن اللطيف محدث، وإنما كان
سكونهم عن الكلام في ذلك لا عن اعتقاده.
ومن المعارضين قوم أداهم السخف إلى التوث بقلم القرآن حتى
الكتاب في الساحف، والمفرط به في السنتا، وهو دليل على ضيق
النظر وضعف المقل، ولم ينسب هذا التوتو إلى ابن حنبل أحد أبداً
والسـَّول الذي ينبغي أن نسأله بعد هذا المرض: أي الحزبين.
كان على حق.

ان المعطلة — ومعهم الحكومة — أخطئاً خطأين:

الأول: أنهم أرادوا اشراك العامة في مسائل علم الكلام، والعلامة
أبعد الناس عنها، وهو اللهم الدقيق الذي تأهله فيه عقول الخاصة
من الفلاسفة، وإمثالهم. كيف يريد المعطلة أن يفهم العامة صفات الله
وده هي عين اللات أو غير الذات، وأن الرؤية تتضمن أن يكون المرء
محدوداً في مكان؟ لقد قرر النبي عليه السلام والسلام من الجارية أن
تعتبر أن الله في السماء وأن شهير الليه، لأن عقلها لا يبتغي لها أكثر
من ذلك، ولم يحاول أن يفهمها أنه ليس في مكان لذلك فقد كانت محاولة
المعطلة افهام العامة ما هو أدق من ذلك تكلفت بما لا يطلق.

الثاني: أن دفع المعطلة الحكومة إلى التدخل بسلطاتها
وسيوحها وسياستها ونفوذها وواباتها في هذه السالة، كان من الخطرة،
بسبب أرادوا أن تكون مجالسم للجلد والمناظرة، كمجمع التسوية
بقرون فيها ما يشاؤون، ثم يرغرون الناس على القول بما قرروا.

وقد دل عمهم هذا في الجهل بنفسية الشعوب: ويستарь انشار
المقائد، فالتنزيف لا ينشر العقيدة، بقدر ما ينشرها الاقتراح
والدعوة بالحكمة والوعظة الحسنة. وقد غلبن المعطلة حين
 اعتبارو السكوت عن القول بخلق القرآن اشراكاً فالإسلام عماده
لا الله إلا الله محمد رسول الله، فمن قاله عصمه دمه، وحسببه
علي الله.
والغريب في الأمر حثنا أن يكون المعتزلة، دعاة الحرية الفكرية
وسلطان العقل، مصدر هذا التعذيب، وأبعد عن البصر بعوائق المهيئة
ولكنهم كانوا عقلين متزمتين في عقليتهم، رأوا أن وأجابهم أن يحملوا
من لا يعقل على قول من يعقل ونسوا أن العقول متافئة، وأن القواعد
بسلطان العقل يقضى بأن تلتمس العذر من ضائق عقله، وسمحت له بالسير
في حياته، وفق عقله الضيق، ما لم يكن في هذا اضرار بمصلحة عامة.

ان محنة خلق القرآن، تجلت عن صراع بين العقل وبين العاطفة.
كان عقل المعتزلة حادة جافة فلسفيًا، يريد أن يفرض ما يراه على العامة.
فرضا، بل يريد أن تكون الأمة فلاسفة تعرف الجوهر والعرض،
والكلية والشكلية والوحدة والتعدد، والمكان والجهة، ولا يمكن القول
بأن ذلك في مصلحة الإنسانية.

وكان المعارضون شعبًا يؤمن بقوله، لا بعقله، ولا يستطيع أن يفهم
ما يقوله المعتزلة في صفات الله، وزاد من كراهية الشعب مناصرة
الحكومة قيامها بما أوتيت من مظاهر القرية، والناس كاهون دائمًا.
مثل هذه المظاهر من أعمى قلوبهم، ويعتبرون الخارج عليها بطلًا,
ويعظون رجال الدين يوم يبتعدون عنها، ويزهون فيها.

وقد أحس المعارضون من طريق الالهام أن القول بنطق القرآن أمر
لا يتفق والدين في شيء، وبخاصة حين رأوا السلطة تؤيد ذلك.

والعقلاء من المحدثين فظنوا أن إلى هذا ورأوا أن العامة إذا تفلسفوا
الحدود، وإذا قلنا لهم أن القرآن مخالق، فذلك يساوي أنه يصح الرد
عليه، بل يجوز الإثبات بهم، وتصح مخالفته، ويمكن للمعلم أن يأتي
في التشريع بغير منه، إلى غير ذلك من الماخذة في الحديث.
فأنفسهم ولا يستطيعون عنها تعبيرًا.
لذلك رأى هؤلاء العقلاة من المحدثين أن الكلام في نفس الموضوع لا يصح لا بالنفي ولا بالاثبات، وعبروا عن ذلك بأن الكلام فيه بدعة حتى امتنعوا أن يقولوا ما هو ظاهر بالبداعة لا ينكره عاقل، وهو أن الفاظنا بالقرآن مظبوطة، والضرف والورق في الصاصح، مخالفة.

من هنا ثلاثي عقل العقلاة من المحدثين، مع عواطف العامية وكونوا جبهة واحدة، وزادهم قوة أن الجنود والسلاح ليست مهما وإن العذاب واقع عليهم، وأن فضيلة التضحية تظهر من جانبهم وهذا ما أعلن عنه كبراؤهم كأس حنبل وأحمد بن نصر، والبويطي إذ كانت أقوالهم جميعا متشابهة تدل على أن ايمان العامة في عقدهم، وإن الاعتراف بطق القرآن هزيمة للشعب ولا يمانه، وشعور بخذال الدين.

ولقد كوفي أحمد بن حنبل من جمهور المسلمين مكانة تنقص عنها مكافأة الآمرين والمعتصم والواقف لأبي دؤاد، وحين هات أحمد بن حنبل قال فيه القائل:

أضحى ابن حنبل مخلة ماضونة ويجب أحمد يعرف المتسك فإذا رأيت لأحمد متناقصا فاعلم بأن مستوره مستهلك.

ويصف عبد الوهاب الوراق جنادة ابن حنبل يقول:

» ما بلغنا أن جمعا كان في الجاهلية والإسلام مثله، حتى أن الأراضي التي وقف فيها الناس مسحت ثم حمّرت، فإذا هي نحو من ألف ألف وحرثنا على السور نحو من ستين ألف امرأة، وكان الناس في الشوارع والمساجد حتى تعطل بعض الباعة وحبل بينهم وبين البيع والشراء وقمل في عدد المسلمين عليه أنهم كانوا نحو ألف وثلاثمئة ألف سوى من كان في السفن.«
والى جانب هؤلاء العقلاء من المحدثين المعارضين كانت طائفة ضيقة العقل لا يمتنعون عن الكلام في القرآن، ولكنها تقبل بقديمة حتى الأكتاب والمفروض وربما دعوهم إلى ذلك انهم رأوا الأئمة الكبار كابن تحتل يعارضون المتزنة، فلم يفهموا سر معارضتهم ووجهة نظرهم، فظنوا أن المتزنة يقولون بخلق القرآن لذا وجب أن يقرواوا بقديمه في كل مظاهرة.

ويلاحظ الأستاذ أحمد أمين «أن ما نقل من المناظرات الليثين كان ضعيفاً سطحياً، إذ لم يتعرض المتزنان لجهر المساءلة ولا أثاروا حقيقة المشاكل، ولا برهنينا البراهين العقلية على وجهة نظرهم» (73).

ويؤكد ذلك، حين توازن بين هذه المناقشات التي حفظها الرواة لنا، وبين الكتب التي صدرت عن الأمون، قانونًا نجد كتب الأمون قد تعرضت لجهر الموضوع، وأكثرت وجهة نظره ونظر حزبه، بخير ما تعرضت له المناظرات. ولعل السري ذلك أمران:

الأول: أن الأمون قد لحق برهب أثناء المناظرات، وخرج من ديدان المناظرة وقد كان من أكبر أصحابه عتلاً والقدرهم على الجدل والاقتناع ومن أوقفهم على حقيقة الموضوع.

والثاني: أن المناظرة كانت بين المتزنة وخصوصهم الذين هم محدثون لا يرون علم الكلام ولا يشتفلون به، ولا يقرونهم، ولا يتعلمون مصطلحاته وقواعده ومبادئه، لذلك كان المتزنة إذا ناظروهم في شيء من ذلك قال المحدثون: لا نعلم شيء مما تقولون، كما يحدث مع ابن حنبل، فيضطرون إلى الجادة في النصوص فقط، وفي التقول لا العقول.

(37) ضريح الإسلام 3/3 195/60
وهذه دائرة ضيقة لا تستع لبيان الأسباب الخفية والذوائع 
المقلية.

هذا أو الجانب الأساسي، في محلة أو مشكلة خلق التنافر، كيف وظف الجانب النظرى، السلطة في سبيل الوصول إلى أن يصير القول بأن القرآن مطلوق - وربما مذهب الاعترال كله - وهو المذهب الرسمي للدولة، كما أن الإسلام هو الدين الرسمي للدولة.

لكن العنف يولد الكراهية، كما أسلفنا، والامة تكره أن تجبرها السلطة، على رأى أو مذهب أو دين.

ولقد أتباونا التجارب بأن كثيرا من المذاهب التي احتضنتها السلطة وحدثت عليها، لم يكن لها عند العامة نصيب.

ولعله بعد بسط المشكلة قد أن الآوان، لأن نحلل نص الآشوري في اللمع.